

في رحاب المقاربة التقابلية والتأويلية

محمد رضا بوخالفة

أستاذ وحدة علم الترجمة، قسم الترجمة، جامعة الجزائر

طالب سنة ثانية دكتوراه، جامعة السوربون III، ESIT

باريس، فرنسا.

نسعى في هذه المداخلة إلى مرافقة القارئ إلى رحاب أهم المقاربتين المطبقتين في الترجمة وهما المقاربة التقابلية والمقاربة التأويلية وإطلاعه على أهم المبادئ التي تقوم عليها هاتان المقاربتان ووجه الاختلاف والائتلاف بينهما.

1_ المقاربة التقابلية Approche contrastive

هي ما يعرف بالأسلوبية المقارنة Stylistique comparée وقد شاع هذا المصطلح وانتشر انتشارا كبيرا عندما قام فيني Vinay وداربليني Darbelnet سنة 1958 بنشر كتاب عنوانه: Stylistique comparée du français et de l'anglais قامت بتوزيعه دار النشر Didier الموجود مقرها في العاصمة الفرنسية باريس. ويهتم هذا المنهج باختلافات كفاءات التعبير التي تستعملها اللغات ولا يعد نظرية بالمعنى الحقيقي، ولكنه قائم على مفاهيم نظرية لسانية. وقد قدم فيني وداربليني في كتابهما المسلمة التالية:

«Les démarches du traducteur et du stylisticien comparatif sont intimement liées, bien que de sens contraire. La stylistique comparée part de la traduction pour dégager ses lois ; le traducteur utilise les lois de la stylistique comparée pour bâtir sa traduction»¹.

ومعنى هذا القول أن مسعى المترجم مرتبط ارتباطا وثيقا بمسعى المتخصص في الأسلوبية المقارنة على الرغم من تعارض اتجاهيهما، فالأسلوبية المقارنة تنطلق من الترجمة لاستخلاص قواعدها، والمترجم يطبق هذه القواعد عند صياغة ترجمته. ومن الضروري حسب فيني وداربلي إبراز الأساليب التي ينبغي على المترجمين الاستعانة بها.

إن المترجم يقرب أثناء قيامه بالترجمة بين منظومتين لسانيتين إحداهما "معبر عنها وثابتة، والأخرى مازالت افتراضية وقابلة للتكيف".

«Le traducteur rapproche deux systèmes linguistiques dont l'un est exprimé et figé, l'autre est encore potentiel et adaptable».²

نستخلص من هذا الاستشهاد مسألتين تستدعيان الاهتمام هما:

- 1- تمتع المترجم بنوع من الحرية في إنتاج نص اللغة المنقول إليها.
- 2- قابلية هذا النص للتكيف.

وأسلوب التكيف في نظرنا هو مفتاح الترجمة الجيدة.

ويذكر فيني وداربلي أنه من المحتمل أن يتفحص المترجم نصه فهو يقوم المضمون الوصفي والعاطفي والفكري للوحدات الترجمية التي قام بتقطيعها، ويعيد تمثيل المقام الذي يشكل الرسالة، ويعاين الآثار الأسلوبية ويقومها إلخ. ولكنه لا يتوقف عند هذا الحد، بل عليه تبني حلا من الحلول، وهو حل يصل إليه بسرعة في بعض الأحيان، حتى يتخيل إليه أن الأمر يتعلق بوحى متزامن، وتذكره بصفة تكاد تكون آلية، قراءة نص لغة الانطلاق برسالة اللغة المنقول إليها. فلا يبقى له سوى مراجعة نصه مرة أخرى للتأكد من عدم نسيان أي عنصر من عناصر اللغة المنقولة، ومن تمام العملية.

Selon Vinay et Darblenet, le traducteur aura, probablement, à explorer son texte : «...évaluer le contenu descriptif, affectif, intellectuel des UT qu'il a découpées ; reconstituer la situation qui informe le message ;

peser et évaluer les effets stylistiques, etc. Mais il ne peut rester là : bientôt son esprit s'arrête à une solution – dans certains cas, il y arrive si rapidement qu'il a l'impression d'un jaillissement simultané, la lecture de LD appelant presque automatiquement le message en LA ; il ne lui reste qu'à contrôler encore une fois son texte pour s'assurer qu'aucun des éléments LD n'a été oublié, et le processus est terminé »³.

وعلى المترجم حسب فيني وداربلي أن يلتزم إمّا بالترجمة "المباشرة" أو الحرفية" أو بالترجمة "غير المباشرة" وإما أن يخضع رسالة اللغة المنقولة إلى الإبدال على الوجه الأكمل في رسالة اللغة المنقول إليها، لأن هذه الرسالة تركز على فئات متوازية تسمى "التوازي البنيوي"، أو على مفاهيم متوازية تسمى "التوازي غير اللساني".

ونذكر من بين هذه الأساليب:

- 1- الاقتراض Emprunt
- 2- النسخ Calque
- 3- الترجمة الحرفية Traduction littérale
- 4- الإبدال Transposition
- 5- التحوير Modulation
- 6- التكافؤ Equivalence
- 7- التكيف Adaptation

وقد تعرضت الأسلوبية المقارنة لانتقادات كثيرة انصبت أساسا على فكرة اعتبارها نظرية، ولهذا نرى من المفيد توضيح المقصود من مصطلح "نظرية".
يعرف قاموس Le Nouveau Robert مصطلح "Théorie" كالتالي:

"Ensemble d'idées, de concepts abstraits, plus ou moins organisés, appliqué à un domaine particulier. Construction intellectuelle méthodique et organisée, de caractère hypothétique (au moins en certaines de ses parties) et synthétique. Principes et lois d'une théorie. Théorie des ensembles. Théorie de la relativité. Eléments de connaissance organisés en système (dans un but didactique)"⁴.

أي أن النظرية هي مجموع الأفكار والمفاهيم المجردة المرتبة والمطبقة على ميدان خاص، فهي بناء فكري منهجي ومنظم. وهي عناصر معرفية مرتبة ضمن منظومة ﴿بهدف تعليمي﴾.

وتقول إيزابيل كولومبا Isabelle Collombat بوجود نوعين أساسيين من النظريات نذكرهما على التوالي : النظرية "الأدائية" أو النظرية "المعيارية" (مثلا: النحو، والأسلوبية، والسولفيج)، والنظرية العلمية (مثلا: الترميزية وعلم الموسيقى).

«Il existe deux types principaux de théorie, que nous nommerons respectivement théorie «instrumentale» ou «normative» (par exemple, grammaire, stylistique, solfège) et théorie «spéculative» (par exemple, herméneutique, musicologie)».⁵

وقد كان عدم التمييز بين النظريتين المعيارية والعلمية هو السبب في توجيه كل هذه الانتقادات إلى المقاربة التقابلية، وكان منتقدوها يعتبرونها مجموعة من الكيفيات المضبوطة التي لا يمكن أبدا تطبيقها على الترجمة، وبعبارة أخرى لا يمكن اعتمادها في وضع نظرية ترجمة، لأن هذه الأخيرة تستطيع أن تكون علمية وليس أدائية، وينبغي التذكير بأن فيني وداربلني هما رائدا التفكير العلمي حول الترجمة بين اللغتين الفرنسية والإنجليزية، وقد ذكرا عدة مرات المفاهيم الثلاثة التالية : المعنى، والنص، والمقام.

«Il y a des cas [...] où la traduction ne ressort ni de la structure, ni du contexte, mais où le sens global et ultime n'est perceptible que pour celui qui connaît la situation»⁶

«Les situations ne se trouvent pas dans les dictionnaires»⁷

«L'étude des situations est [...] essentielle en stylistique comparée, puisqu'elle seule permet de décider, en dernier ressort, de la signification d'un message»⁸.

ومعنى هذا القول إن ثمة حالات لا ترتبط فيها الترجمة بالبنية ولا بالسياق، فلا يدرك المعنى العام عندئذ إلا العارف بالمقام. والمقامات لا توجد في القواميس وتتم دراستها في الأسلوبية المقارنة لأنها هي وحدها التي تسمح في نهاية المطاف بالتصريح بدلالة رسالة ما، كل هذا يؤكد أن فيني وداربلي لم يهملوا تماما أهمية السياق في أعمالهما، ولكن المكانة التي خصصت له هي دون تلك التي خصصت لمقارنة أسلوب اللغات.

2. المقاربة التأويلية: Approche interprétative

يدرك كل مترجم سواء أكان مبتدئا أم محنكا أن العملية الترجمية لا تتمثل في ترجمة الكلمات، أو لا تتمثل بصفة عامة في اللغة. فلا يمكن أن نترجم جملة إذا لم نكن على دراية بالسياق الذي تدرج فيه، والغريب أن المترجم الذي يختار الألفاظ بعناية فائقة، لا بد أن يكون ذا خيال يمنحه نوعا من الحرية، وهو انزياح لا يحرف محتوى الرسالة التي ينقلها. ويجب أن تسمح له هذه الحرية التي نصفها "بالحرية الموجهة" Liberté Guidée أن يتقمص شخصية صاحب النص الأصلي وشخصية متلقي النص المترجم في الوقت نفسه. ولتحقيق هذا ينبغي على المترجم أن يوضح المضمرات، أي نية الكاتب الثابتة إذا كانت هذه النية مخفية بين السطور، ونستشهد في هذا الصدد بالقول التالي لـ: J.R Ladmiral

«Le métier de traducteur consiste à choisir le moindre mal ; il doit distinguer ce qui est essentiel de ce qui est accessoire. Ses "choix de traduction" seront orientés par un choix fondamental concernant la finalité de la traduction, concernant le public cible, le niveau de culture [...]. La traduction visera plus ou moins à "la couleur locale" ou au dépaysement (dans le temps comme dans l'espace) et les lunettes du traducteur seront respectivement des verres colorés ou des verres transparents».⁹

ومعنى هذا القول إن مهنة المترجم تتمثل في اختيار أخف الضررين، إذ يجب عليه التمييز بين ما هو أساسي وما هو ثانوي، وسيوجه اختياراته الترجمة اختيار جوهري يتعلق بقصدية الترجمة، finalité de la traduction وبالجمهور المستهدف ومستواه الثقافي.

ويسعى المترجم على الأقل إلى الحفاظ على الطابع المحلي، couleur locale أو إلى التغريب dépaysement (في الزمان والمكان) وسينظر إلى الترجمة نظرة ذات أبعاد مختلفة أو نظرة محايدة. وهكذا يتضح أن عملية الترجمة لا تقوم على اللغة فقط وإنما على عدد وافر من العوامل اللسانية وغير اللسانية.

إن لادميرال Ladmiral يعرض الترجمة كعملية مستقلة لا ترتبط باللسانيات، ويحث على تجنب الوقوع في التنظيرية اللسانية théorisme linguistique التي يصفها بـ "الإرهاب اللساني" "terrorisme linguistique" ولكن ينبغي استعمال المعارف اللسانية من أجل تنوير المترجم الذي ينبغي أن يتحلى بفكر لا يتوفر على تكوين نظري تام، حتى يوجه اهتمامه إلى التطبيق.

وتتناول المقاربة التأويلية الترجمة بهذا المفهوم نفسه، فمبدأ الترجمة يركز في نظرها على محاور ثلاثة هي: الفهم، والنقل (التحويل)، وإعادة الصياغة.

أ- الفهم : يتمثل في استيعاب النص استيعابا جيدا وتاماً، مع الأخذ بعين الاعتبار جوانب ثلاثة مهمة هي السياق اللفظي، والسياق المرجعي والمقام.

1- السياق اللفظي : contexte verbal وهو يحد من الافتراضات المعنوية التي تلجأ إليها اللغة،

2- السياق المعرفي : contexte cognitif ويسمح بإجلاء معنى القول شيئاً فشيئاً،

3- المقام: situation ويمثل الإطار المادي، وهو بتعبير دسليسكوفيتش D. Deskovitch :

«La salle où l'on se trouve, car la perception d'une forme verbale ne déclenche qu'une reconnaissance. Dans le discours le message apporte un savoir qui se libère très vite de toute association verbale».¹⁰

أي أن المقام هو بمثابة القاعة التي توجد فيها، لأن إدراك الصيغة اللفظية لا يثير سوى معرفة واحدة، وتزودنا الرسالة في الخطاب بمعرفة تتحرر بسرعة كبيرة من كل رابطة لفظية.

ب- التحرر من النقل: يتعلق الأمر بتجريد القول من اللفظ، وبعبارة أخرى تجريد الفكر من قالبه اللساني.

وخلاصة القول:

1- إن المقاربة التقابلية هي أول نظرية ترجمة تأسست على دراسة علمية، ونؤكد بأن أساليبها الترجمة هي أساليب قابلة للتطبيق على أية ثنائية لغوية، وقد طبقناها نحن على اللغتين العربية والفرنسية فكانت النتيجة مشجعة.

2- إن المقاربة التأويلية لا تقصي كل أساليب الترجمة التي أحصاها فيني وداربيني ولا تنفي فائدتها، ولكنها تعرض الأشياء بكيفية مختلفة. كما أنها لا تستبعد نهائياً في المستوى العلمي، تطبيق بعض أساليب الترجمة، ومثال ذلك تطبيقها لأسلوب التكييف والتكافؤ، وهما الأسلوبان اللذان يمكن

الاحتفاظ بهما من ضمن أساليب فيني وداربلني، أما الاقتراض والترجمة الحرفية فتلجأ إليهما في بعض الحالات، ولكنها لا تعتبرهما أسلوبا لترجمة بل وسيلة لسد ثغرة معجمية أو مصطلحية في اللغة على خصائص خارجة عن اللغات غير مرتبطة بما يمكن أن يقوم به مستعملوها من ممارسات خاصة. لقد أحصى فيني وداربلني سبعة أساليب تسمح بإيجاد حلّ لكثير من المعضلات التي تعيق العملية الترجمة، إلا أن الأسلوبية المقارنة تبقى عاجزة نوعا ما، مقارنة بالمقاربة التأويلية. بما أنها لا تقدم جميع الحلول للصعوبات التي يمكن أن يواجهها المترجمون، ومع ذلك ينبغي ألا ترفض هذه المقاربة بأية حال من الأحوال بحجة أنها لا تواكب التقدم الذي أحرزته المقاربة التأويلية، فهي على الرغم من ذلك تقدم عدة حلول لكثير من المشاكل الترجمة والأهم من هذا أن أساليب الترجمة التي أحصاها فيني وداربلني مفيدة جدا لمترجم حديث العهد بالمهنة، ومفيدة أيضا في مجال التعليم لأن مطالبة مترجم متمرن بالتخلي عن اللفظ أثناء الترجمة، يمكن أن يبدو له أمرا عسيرا ومن الممكن عندئذ أن يتيه ولا يتوصل إلى نتيجة، فبلوغ مستوى الفهم من أجل الإفهام لا يتأتى إلا للمترجم المحنك.

إن النتائج من وجهة نظر المقاربة التأويلية تتعلق بمعارف ممارس الترجمة، إذ يمكن أن يحظى نفس الأصل بعدد وافر من الترجمات المختلفة. ومما لا شك فيه أن عملية نقل لغة إلى لغة أخرى وخاصة نقل ثقافة إلى ثقافة أخرى لا تأتي إلا بتعزيز عملية النقل هذه بتحليل أدبي ولساني بالمعنى الواسع. وأحسن ما نختم به عرضنا هذا مقولة روشار Rochard :

"إن الفعل الترجمي هو تجاذب دائم بين المقارنة والتأويل"

«Traduire, c'est un dialogue permanent entre le contrastif
et l'interprétatif»¹¹

1. Vinay, J.P., et Darbelnet, J., *Stylistique comparée du français et de l'anglais*, Ed. Didier, Paris, 1958, p. 21
2. Vinay, J.P., et Darbelnet, J., op. cit., p.46.
3. Vinay, J.P., et Darbelnet, J., op. cit., p. 46.
4. Rey- Debove, J., Rey, A., *Le Nouveau Petit Robert*, Dictionnaire alphabétique et analogique de la langue française, Dictionnaires Le Robert, Paris, 1993.
5. Collombat, I., «La stylistique comparée du français et de l'anglais : la théorie au service de la pratique», in *Meta*, numéro 3, Volume 48, septembre 2003, p. 2.
6. Vinay, J.P., et Darbelnet, J., *Stylistique comparée du français et de l'anglais*, Ed. Didier, Paris, 1958, p. 173.
7. Vinay, J.P., et Darbelnet, J., op. cit., p. 174.
8. Vinay, J.P., et Darbelnet, J., op. cit., p. 175.
9. Ladmiral, J.R., *Traduire : théorèmes pour la traduction*, petite bibliothèque Payot, Paris, 1979, p 211.
10. Seleskovitch, D. et Lederer, M., *Interpréter pour traduire*, Publications de la Sorbonne, Didier Erudition, Paris, 1984, p. 16.
11. Rochard, M. (2000) : «L'interprétatif et le contrastif sont-ils solubles dans la logique?», extraits d'une contribution présentée au colloque de l'Association canadienne de traductologie, Edmonton, <<http://perso.wanadoo.fr/michel.rochard/Methodologie/Edmonton.html> <javascript: fenetre('http://perso.wanadoo.fr/michel.rochard/Methodologie/Edmonton.html')>>.(juillet 2005).